في الابدال
بين العربية والسريانية

بنيامين حداد

نشأ الابدال في اللغة التي اطلق عليها اللغة السامية الام الاولى مع نشأة اصولها اللغوية الاولى، ولد مع ولادة مفرداتها، وهو داخل في تكوينها ونشأتها، فالابدال في الاصوات اللغوية ليس عرضاً من اعراض اللغة، وانما كان ولازال محركاً داخلياً لدفع عجلة تطورها وتوسعها.

استمر الابدال مع تطور اللغة، والتطور في اللغة الام الاولى جرى في اتجاهين:

الاول: التطور الكمي (المعجمي)، والمقصود هنا نشوء او ولادة اصول لغوية جديدة.

الثاني: التطور النوعي، اي النحوي الصرفي، والذي يحدد دلالة اللفظة من حيث الافراد والتثنية والجمع او التذكير والتأنيث... اوالتعريف والتنكير، او الصفة والموصوف وغيرها، فضلاً عن تحديد زمن الحدث او الفعل، ودلالات حروف المعاني من خلال ربطها للجمل والعبارات.

والاتجاه الاول في نشوء اللغة وتطورها، اي التطور الكمي المعجمي، وولادة اصول لغوية جديدة نتيجة لعملية الابدال، هو ما سنتناوله في هذه الدراسة.

في هذا الاتجاه من تطور اللغة، لعب الابدال دوراً كبيراً بل اساسياً في التوسع الكمي للغاتنا السامية الشقيقة، هذه السعة اللغوية المعجمية التي تمتاز بها سليلات اللغة السامية الام الاولى وبخاصة اللغتان الشقيقتان السريانية والعربية، اللتان

تفوقان في مفرداتها المعجمية معظم اللغات العالمية الاخرى. وهو ما تثبته الاحصائيات التي اجريت في هذا المجال.

والابدال حصل داخل جسم اللغة الام الاولى ذاتها، قبل ان تتفرع، وتولد منها لغات عديدة، هي سليلات تلك الدوحة الكريمة، والتي منها اللغتان السريانية والعربية.

ما ذكرناه بشأن العلاقة بين الابدال ونشوء اللغة، قد يبدو غير مقنع لدى البعض، غير ان اسانيد قوية تدعم ما ذهبنا اليه، منها:

١ـ ان معظم او كل حالات الابدال الحاصلة بين اللغة السريانية الآرامية وشقيقتها اللغة العربية، نلقاه هو بعينه قائماً داخل جسم اللغة السريانية ذاتها، وداخل جسم اللغة العربية.

وهذا يعني ان هذه العملية، عملية الابدال، قد حدثت قبل ان تغدو السريانية او العربية فرعاً مستقلاً قائماً بذاته.

ومن الامثلة على ذلك:

ظهر= ܛܗܪ. ولدينا في العربية (طهرَ) ايضاً.

نظر= ܢܛܪ. وفي العربية (نطرَ) ايضاً.

حمض= ܚܡܨ. ولدينا في العربية (حمصَ) ايضاً.

ظلم= ܛܠܡ. ونجد في العربية (طلمَ) ايضاً.

قتل= ܩܛܠ. ولدينا في العربية (قطلَ) ايضاً.

قرض= ܩܪܨ. ولدينا في العربية (قرصَ) ايضاً.

قرس= ܩܪܣ. وفي العربية نجد (قرشَ) ايضاً.

فظَّ = ܦܛ. وفي العربية (فطَّ) ايضاً.

قضى = ܩܨܐ. وفي العربية نلقى (قصا) ايضاً.

ضحَّ = ܨܚ. وفي العربية نجد (صحَّ) ايضاً.

ظلَّ = ܛܠ. وفي العربية (طلَّ) ايضاً.

ضمَّ = ܛܡ. وفي العربية نجد (صمَّ) ايضاً.

ضمدَ = ܛܡܕ. وفي العربية (صمد) ايضاً.

ضاقَ = ܥܩ. وفي العربية (عاقَ) ايضاً.

قشط = ܟܫܛ. وفي العربية (كشطَ) ايضاً.

ضوء = ܙܝܘ. وفي العربية لدينا (زي) ايضاً.

ومن ذلك العشرات من المفردات.

٢- الابدال القائم بين السريانية وبين اية شقيقة اخرى لها، عربية كانت او غيرها لا وجود له بين السريانية او اية واحدة من شقيقاتها، وبين اية لغة اجنبية خارج اطار اسرة اللغات السامية.

هذا الواقع يؤكد لنا امرين، الاول وقد سبق ان ذكرناه، وهو ان الابدال قد حصل في اللغة السامية الام الاولى قبل تفرعها وانقسامها. والامر الثاني هو ان ظاهرة الابدال بحد ذاتها يمكن اعتبارها سنداً يثبت ان مجموعة اللغات التي اطلق عليها اللغات السامية، تنحدر من لغة ام اولى واحدة، والا لماذا لا تحصل عملية الابدال بين العربية والانكليزية مثلاً، او بين السريانية واحدى اللغات الهندواوربية؟

ذكرنا ان عملية الابدال بدأت مع ولادة الاصول او الجذور الاولى اللغوية الاولى على لسان الانسان السامي الاول، وظلت عملية الابدال هذه تواكب مسيرة تطور اللغة، لانها كانت بحد ذاتها عملية نشوء اللغة ذاتها وتطورها وتوسعها في جانبها الكمي المعجمي. ولقد استمرت هذه العملية حتى بداية التكريس اللغوي، وذلك بعد ان تفرعت الى شعب عديدة، فعمد كل قبيل الى وضع اشكال ورموز تدوينية لها، عندها تقيدت اللغة وجمدت، ليس معجمياً وحسب، بل نحوياً ايضاً.

فتقولبت وفق احكام وضوابط محددة، وقواعد وقوانين دقيقة لا تخرج عليها، ولا تسمح بأي تغيير او بإدخال اي اجراء جديد. اللهجات المحكية، التي ظلت وسيلة التخاطب اليومي، والتي استمر التطور والتغيير قائماً فيها حتى اليوم، بسبب غياب الاحكام والقوانين الضابطة لها.

واعود فأكرر ان عملية الابدال ـ برأيي ـ هي عملية نشأة اللغة، ولادة اصولها، وهي المخاض الاول لولادة الالفاظ او الاصول اللغوية الاولى للغتنا الام الاولى.

ولكي اوضح ذلك اقول:

الآخذون بنظرية محاكاة الاصوات الطبيعية في نشوء اللغة، بشكل مباشر او بشكل غير مباشر، لحظوا القيمة البيانية التعبيرية للصوت، او الرابطة الايقاعية بين الصوت والمعنى او الدلالة.

ولقد لاحظ علماء اللغة العرب مناسبة اصوات حروف لغاتنا السامية لمعانيها. ولمحوا في صوت الحرف الشيء الكثير من القيمة التعبيرية الموحية للدلالة. اذ لم يعنهم من كل حرف كونه صوت، وانما عناهم من صوت هذا الحرف كونه معبراً عن غرض، وان الكلمة مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حل وتفكيك اجزائها الى مجموعة من الاصوات الدوال المعبرة، اذ ان صوت كل حرف فيها يستقل ببيان معنى خاص، ما دام يستقل بإحداث صوت معين. وان لصوت كل حرف، ظِل واشعاع، اذ كان لكل حرف صدى وايقاع. وهذا ما يذهب اليه الدكتور صبحي الصالح في كتابه (دراسات في فقه اللغة ١٤٢).

كما يذكر السيوطي في كتابه (المزهر) ان عباد بن سليمان الصيحري، ذهب الى ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية.

وابن جني، العقلية الجبارة، في مصنفه القيم (الخصائص: ج٢ ص ١٥٩)، يربط وبذكاء قل نظيره، بين القيمة التعبيرية للحروف وما يشاكل اصواتها من الاحداث.

ومن الامثلة العديدة التي يوردها ابن جني لفظتي (خضم وقضم)، فالخضم: لأكل المادة الرطبة، كالبطيخ والقثاء، وما كان نحوهما، من المأكول الرطب اللين.

والقضم: لأكل المادة الصلبة اليابسة، قضمت الدابة الشعير ونحو ذلك... فاختاروا الخاء لرخاوتها، للرطب. والقاف، لصلابتها لليابس الصلب كالشعير ونحوه، وذلك حذوا للمسموع الاصوات على محسوس الاحداث.

واضح تماماً، ان تحليلات ابن جني الذكية هذه، قائمة في واقعها على حكاية الاصوات الطبيعية، ونقل الصوت الطبيعي الغتمي الى صوت هجائي مفصح. فالرخاوة التي يلمحها ابن جني في الخاء، هي في الحقيقة حكاية صوت انغراس الاسنان في الجسم الرطب اللين كالبطيخ ونحوه، وكذا القسوة التي لمحها في القاف، فهي في الحقيقة حكاية صوت الاسنان وهي تقضم الجسم الصلب اليابس كالشعير ونحوه.

ويجمع اللغويون اليوم على ان في اللغة معانٍ تتطلب اصوات معينة، وان مدلولات كثيرة عبر عنها الانسان بألفاظ نلحظ فيها بوضوح تام وثوق الصلة بين الاصوات والمدلولات.

كانت حكاية الاصوات الطبيعية او نقلها وترجمتها الى اصوات مفصحة هجائية، نقلة كبرى في مجال نشوء وسيلة التفاهم الصوتية (اللغة).

لقد وجد الانسان نفسه ازاء اصوات غُتمية ثقيلة، هي وليدة حركة كتلة المادة التي تورث اضطرابات واصطكاكات خفيفة او عنيفة، تحدثها حركة المادة بحالاتها الثلاث: الصلبة والسائلة والغازية، مجتمعة او منفردة، وفي ظروف بيئية مختلفة. في حين لم يكن للانسان، هذا الكائن الحي المتربع قمة هرم الاحياء، سوى هواء الزفير المنطلق من جوفه. وكل ما في وسعه هو استغلال هذه المادة الغازية، فتمكن بشكل اعجازي يفوق التصور، ان يحكي الاصوات الطبيعية الغتمية باعتراض او قطع او اعاقة تيار هواء الزفير المار عبر مدارج (حجرة الرنين) لدى الانسان، بأصوات قطع ثقيلة او خفيفة، هي قمة في الافصاح، عالية الدلالة، تختلف تماماً عن طبيعة الاصوات الصادرة عن الطبيعة، فصوت الذئب مثلاً حكاه الانسان بصوت العين الممدود بحرف المد الطويل الواو: (عو) ثم اشتق منه (عوى).

وصوت الدجاج، حكاه الانسان بصوت القاف الممدود بحرف المد الطويل الالف الهاوية اللينة، ثم عاد فكرره كما يفعل الدجاج، ليؤلف من ذلك لفظ (قاق). وصوت الصرصر حكاه الإنسان بصوت الصاد، ومده بشكل ترددادي بصوت الراء القريب من اصوات المد، ليؤلف لفظ (صرَّ) وتكراره (صرصرَ). ونحن لو أصخنا السمع جيداً وبإمعان الى اصوات الذئب او الدجاج او الصرصر، لما وجدنا فيها نطقاً مفصحاً محققاً لأصوات العين او القاف او الصاد، كما هي في نطقنا المفصح لهذه الاصوات.

المعروف ان الاصوات الطبيعية التي تصدر عن حركة الاجسام، تختلف باختلاف مادة تلك الاجسام وشكلها وحجمها، وطبيعتها وكثافتها، وفي كل مرة يحتاج الانسان من اجل حكايتها الى اصوات هجائية معينة ومختلفة فالصوت الصادر عن الحجر، يختلف عن الصوت الصادر عن الخشب، وكلاهما يختلف صوتاهما عن الصوت الذي يصدره الحديد مثلاً.

وقل ذلك ايضاً عن طبيعة الحركة ذاتها، فقد تكون الحركة قوية او ضعيفة، وقد ينشأ عن الحركة طرق او ضغط او ارتطام او اصطدام او اهتزاز او احتكاك او انفلاق او تهشم او انبعاج او انفجار.....الخ. وفي كل مرة نحتاج لمحاكاة ذلك الصوت الغتمي اللا مفصح اصواتاً مفصحة هجائية معينة.

ومثل ذلك قل عن تأثير المكان او الحييز الذي يشغله الجسم وتحدث فيه الحركة، فصوت اصطدام صخرتين في وادٍ عميق مثلاً يختلف عنه فيما لو وقع الاصطدام في ارض مستوية وفضاء مفتوح، وسيختلف عنه لو وقع داخل بئر او بين جدران اربعة او داخل وسط مائي....الخ. وهنا ايضاً سيحتاج الانسان لتمثيل ومحاكاة كل تلك الاصوات ونقلها من الغتمية واللاافصاح الى الافصاح الهجائي، الى اصوات هجائية معينة.

وما ذكرناه بحق المواد الصلبة يمكن قوله بحق المواد السائلة او الغازية.

فصوت غليان السائل في اناء مغطى مثلاً، يختلف عنه لو كان الاناء مكشوفاً. والريح التي تعصف في غابة يختلف صوت صفيرها لو كانت تعصف في صحراء. وقس على ذلك صوت حركة المادة بكل حالاتها في اجواء وبيئات مختلفة.

وتأسيساً على ذلك اليس بالامكان القول ان استخدام الاصوات المختلفة لحدث واحد وفقاً لظروف الطبيعة المختلفة هي عملية ابدال، بل عملية اثراء كمي معجمي للغة؟

والثنائي اقرب هجاء يحكي الاصوات الطبيعية، وهذا يقره معجم اللغات السامية، وبخاصة معجما اللغتين السريانية والعربية اللذان يقران بوضوح ان الصيغ الثنائية ـمعظمها ان لم نقل كلهاـ ومكرراتها الى حكاية الصوت، فضلاً عن كم كبير من الصيغ الثلاثية، نسبها اللغويون الى حكاية الصوت.

والكِلم في عرف القائلين بالثنائية التاريخية في اللغة نشأت اولاً على هجاء واحد، متحرك فساكن، باعتباره ابسط شكل يمكن ان يحكي الاصوات الطبيعية، كما يذهب الاب انستاس الكرملي في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ص ١-٩).

ولقد قمت بعملية جرد للاصوات ذوات الهجاء الواحد (الصيغ الثنائية) في كلتا اللغتين العربية والسريانية، فكان تعداد الاصول الثنائية في العربية (٥٧٧) ثنائياً. اما في السريانية فكان تعدادها(٢٦٦) ثنائياً وقد اعتمدت في جرد الصيغ الثنائية العربية على كتاب (احصائيات جذور معجم لسان العرب) مقارنة مع جذور معجم (الصحاح) للدكتور علي حلمي موسى.

اما في السريانية فقد قمت بمسح اشهر ثلاثة معاجم هي: (كنز اللغة السريانية) للمطران توما اودو، و(دليل الراغبين) للمطران يعقوب اوجين منا، و(كنز السريانية) للمستشرق الانكليزي باين سميث.

ولقد لاحظت ان مجموعات كبيرة من هذه الاصول الثنائية التي ترد مشتركة في فائها (الصوت الاول) ومختلفة في عينها (الصوت الثاني)، رغم انها حكاية لصوت حدث واحد معين، الا انها لا تخرج عن اطار قيمة تعبيرية عامة واحدة، وتظل الدلالية المشتركة بينها توجه المعنى العام توجيهاً خاصاً، وتزيده تنوعاً، وتكسبه قوة او ضعفاً، كثرة او قلة، قرباً او بعداً، معينةً كيفها، واصفة كمها، راسمة حدّها.

وكمثال، هناك ثنائيات تحكي صوت (حدث) واحد في ظروف مختلفة، نحو: (قت، قث، قد، قذ، قس، قش، قص، قض، قط، قظ. وما يقابلها من نظائر في السريانية، وهي: ܩܛ ܩܕ ܩܙ ܩܨ ܩܫ ܩܬ. هذه الاصول الثنائية ذات الهجاء الواحد، تجمعها كلها قيمة تعبيرية تحكي معنى: (الفصل والقطع والشق والفلق، والكسر والتهشيم والتمزيق والتفريق والتفتيت والتناثر والنزع والقلع والقشر والنحت والعرق......الخ كل هذا في اجسام صلبة قوية قاسية يابسة...

والاحساس هنا بالقوة والصلابة، والقسوة واليبس في الجسم الذي حدث فيه الفصل والقطع بدرجات متفاوتة، حكيناه او عبرنا عنه بصوت مفصح قوي هو صوت (القاف)، الناتج عن اعاقة كبيرة لهواء الزفير في (حجرة الرنين).

اما القطع اي (الحدث) فدلت عليه التاء والثاء والدال والذال والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء.

اليس بامكاننا ان نقول: ان هذه الاصوات مبدلة من بعضها وفقاً للظروف التي اقتضتها طبيعة الكتلة التي حدث عمل القطع فيها، من حيث حجمها ووزنها وقوامها، وطبيعة الآلة التي تم القطع بها، والبيئة الزمكانية والمناخية التي حدث القطع فيها.

هذا وبإبدال صوت القاف القوي، بصوت ضعيف رخو كصوت الحاء او الخاء او الفاء او الهاء وما ماثلها، والناتجة عن اعاقة جزئية لهواء الزفير داخل (حجرة الرنين)، نحو:

حِتّ، حثّ، حدَ، حدّ، حزّ، حسّ، حشّ، حصّ، حضّ، حطّ،حظّ.

او: خت، خث، خد، خز، خس، خش، خص، خض، خط، خظ. وما يقابلها في السريانية بلفظها.

او: فت، فث، فد، فز، فس، فش، فص، فض، فط، فظ، ومايقابلها في السريانية بلفظها.

او: هت، هث، هد، هذ، هز، هس، هش، هص، هض، هط، وما يقابلها في السريانية بلفظها.

هذه الاصوات الرخوة الضعيفة التي شكلت الركن الاول من هذه الهجاءات الاحادية، اعطتنا احساساً بالوهن في صوت القطع بدرجاته المتفاوتة، وذلك في اجسام لينة رخوة طرية.

اليس بإمكاننا هو القول ان الحروف الرخوة الضعيفة: (الحاء والخاء والفاء والهاء) في مجموعة الثنائيات الاخيرة، هي ابدال من القاف الصوت القوي في مجموعة الثنائيات الاولى؟ اقتضاه ظرف او طبيعة المادة الرخوة اللينة الطرية التي وقع عليها حدث التقطيع او التفريق او الفصل؟

ان ما قلناه بحق الالفاظ ذات الهجاء الواحد، ينطبق تماماً على الفاظ ذات هجائين، وهي مجموعات كثيرة جداً، تشترك في حرفيها الاولين اي في (فائها) و(عينها)، وتختلف في الحرف الذي يثلثها، نحو مجموعة الثنائي (فرّ)، وما يثلثه، او ما يُلحق من حرف ثالث للصيرورة الى هجائين، او الى الصيغة الثلاثية، وهي: (فرت، فرث، فرج، فرخ، فرد، فرز، فرس، فرش، فرص، فرض، فرط، فرع، فرق، فرك، فرم، فره، فرى).

ولدينا في السريانية: (ܦܪܬ، ܦܪܓ، ܦܪܚ، ܦܪܘܟ، ܦܪܫ، ܦܪܥ، ܦܪܙܕ، ܦܪܛ، ܦܪܟ، ܦܪܨ، ܦܪܩ، ܦܪܡ، ܦܪܗ، ܦܪܐ). وكلها تدل من او من بعيد على القطع وتحويل الكل الى اجزاء. والاصل في كل هذه الالفاظ هو هجاء واحد (متحرك فساكن هو (فر).

وللصيرورة الى صيغة ثلاثية (هجائين)، جرى تذييل الاصل بحروف مثلثة ـ بكسر اللام ـ هي: (ت، ث، ج، خ، د، ز، س، ش، ص، ض، ط، ع، غ، ك، ق، م، هـ، ي). وفي السريانية: (ܬ، ܓ، ܚ، ܕ، ܫ، ܥ، ܙ، ܛ، ܟ، ܨ، ܩ، ܡ، ܗ، ܝ).

وبالرغم من ان عملية التثليث تمت باضافة حرف مختلف في كل مرة، وبمعنى آخر، جرى ابدال حرف بحرف آخر غيره.

الا ان المعنى العام والدال على القطع والتفريق وتحويل الكل الى اجزاء ظل قائماً.

ترى هل بإمكاننا القول ان هذه الاصوات العديدة مبدلة من بعضها وفق ظروف (الحدث) المختلفة في كل مرة؟ وان نطلق على مثل هذه الظاهرة تعبير (الابدال النشأوي) في اللغة؟

على غرار ما سقناه، هناك مجموعة غيرها كثيرة، قد تشمل محتويات المعجم كله.

خلاصة القول ـ استناداً الى ماتقدم ـ لم يكن الابدال مجرد ابدال صوت بصوت آخر لدى هذا القبيل او ذاك، وانما كان عملية نمو ونشوء اللغة واغنائها، ذلك الغنى وتلك السعة الملاحظة في اصول لغاتنا السامية الشقيقة.

المراجع

- ابن جني، الخصائص، بغداد ١٩٩٠.
- ابن حزم الاندلسي، الإحكام في اصول الأحكام مصر ١٣٤٥هـ.
- ابو الطيب عبد الواحد بن علي، دمشق ١٩٦٠.

ـ ابن السكيت، القلب والابدال، القاهرة ١٩٧٨.
ـ انستاس ماري الكرملي، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها، القاهرة ١٩٣٨.
ـ باين سميث، كنز السريانية، نيويورك ١٩٨١.
ـ بنيامين حداد، الثنائي وحكاية الصوت، بغداد ١٩٩٩.
ـ بنيامين حداد، صوت النون بين الصائت والصامت، بغداد ٢٠٠٢.
ـ بنيامين حداد، دور الصائت في نشوء اللغة، بغداد ١٩٩٨.
ـ بنيامين حداد، دور اصوات الاسل والنطع في نشوء اللغة ، بغداد ١٩٩٨.
ـ توما اودو، كنز السريانية، الموصل ١٨٩٧.
ـ السيوطي، المزهر في علوم اللغة وانواعها، القاهرة.
ـ صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، بيروت ١٩٧٦.
ـ علي حلمي موسى، احصائيات جذور لسان العرب، الكويت ١٩٧٢.
ـ لويس معلوف، المنجد، بيروت ١٩٥٦.
ـ مجمع اللغة العربية- القاهرة، المعجم الوسيط، طهران.
ـ يعقوب اوجين منا، دليل الراغبين الى لغة الآراميين، بيروت ١٩٧٥.